وداعا هيغل الشرق.. يوسف سلامة

مصطفى النشار[1]

رحل في الرابع من آذار/ مارس 2024م عن دنيانا الفانية أحد أساتذة الفلسفة العظماء الذين أصنفهم بالأساتذة أصحاب الرسالة لأنهم ينيرون لمجتمعاتهم الطريق إلى المستقبل، ويظلون على إخلاصهم لرسالتهم التنويرية من دون كلل أو ملل، ويسخرون حياتهم بكل أريحية من دون صخب لهذه الرسالة، أيًا كان موقعهم، وأيًا كانت المصاعب والظروف التي تواجههم.

وهكذا كان يوسف سلامه أستاذ الفلسفة الفلسطيني – السوري الذي عاش حياته بين فلسطين وسورية ومصر، واستقر به المقام مؤخرًا في مهجره الأخير بدولة السويد، لقد عرفته منذ حضوره إلى القاهرة مبتعثًا للحصول على درجة الدكتوراه التي كانت بإشراف حسن حنفي، وكم كان التوافق بين الأستاذ والتلميذ، فقد كانا من محبي هذا الفيلسوف الألماني صعب المراس صاحب أكثر المذاهب الفلسفية تأثيرًا في تاريخ الفلسفة بعد أرسطو. وقد تميز يوسف من بين تلاميذ حسن حنفي بالإصرار على مواصلة مشروعه للحصول على الدرجة العلمية، على الرغم من المشاكسات والصعوبات التي كان دائمًا ما يضعها الأستاذ أمام تلاميذه ليختبر صلابتهم، ومدى شغفهم بالبحث الفلسفي، وتدريبهم على الكتابة الفلسفية متجاوزين درجة الانبهار بما يكتبه الآخرون، حتى لو كان الفيلسوف الذي تخصصوا في دراسته، فقد كان دائمًا يحاول أن يزرع فيهم روح التفلسف بقوله إنهم ليسوا أقل من هذا الفيلسوف أو ذاك عقلًا، وعليهم دائمًا أن يرتفعوا إلى منزلته ويعبروا عن رؤيتهم النقدية له، وكم كان يوسف يشكو لي قائلا: ((هو حسن حنفي عايز مني إيه بعد عشر سنوات قضيتها مع هيغل؟ وبعد أن قدمت له بحسب توجهاته أكثر من خمسمئة وخمسين صفحة عن موضوعي مفهوم السلب واليوتوبيا – دراسة في هيغل وماركيوز))، فكنت أرد عليه: ((يا صديقي إنه يريدك هيغل جديد)).

ولا يظنّن أحد أنه كان يضيق بحسن حنفي أو بغيره؛ فقد كان يحمل قلبًا شفافًا محبًا للجميع على الرغم من كل معاناته الشخصية في حياته، وكان قادرًا على احتواء الجميع بحب وأريحية كنت أتعلمهما منه، وأحسده عليهما. وكم كان شديد التواضع والكرم مع أصدقائه درجة أني فوجئت بأنه يهديني نسخة من هذا السفر الضخم الذي كلفه كثيرًا من الأموال بمعايير زماننا ذاك، وعليه إهداء شخصي منه، ولما قلت له لِمَ هذه التكلفة يا صديقي إنني قرأت هذه الرسالة وعشتها معك؟، قال: ولذلك من حقك أن تحتفظ بنسخة منها في مكتبتك الخاصة.

وكم كانت مفاجأة تدل على أخلاق هذا الباحث الفارس النبيل أن وجدته يهدي عمله كله إلى كل أصدقائه ومحبيه، انظر إلى هذه الكلمات التي كتبها في هذا الإهداء الفريد الذي لم نعهده في الرسائل العلمية: ((لم يكن هذا البحث أن يخرج على صورته الراهنة لولا الطابع الجماعي الذي اتسم به إعداده، فلقد تلقيت من المساعدة والعون من الأصدقاء والزملاء ومن أناس لا أعرفهم -ولكنهم من أهل العلم وسدنته– ما يكفي لاعتبار هذا البحث محصلة لعمل فريق بأكمله. فالفضل ليس لي وحدي في إعداده، فالشكر كل الشكر لكل من أسدى لي عونًا مهما كان قليلًا)).

وإن نسيت لا أنسى ذلك اليوم الذي جلسنا فيه معًا في شقتي المتواضعة بالهرم، نتناقش، ونتبادل الهموم، فهو كان يكتب عن هيغل أعظم فلاسفة أوروبا، وأنا أقرأ وأكتب عن أرسطو أعظم فلاسفة اليونان في نهار رمضان الذي لحقنا فيه وقبل الإفطار مباشرة أستاذ الأدب الإنكليزي الشهير فخري قسطندي. اقترب وقت الإفطار، فحاولت أن أدعوهم للذهاب إلى أي مطعم قريب لنفطر، وكنت أعلم أن فخري قسطندي يصوم معنا رمضان، فقالا: لم يعد هناك وقت، فلم أجد إلا أن أعد لهم طبق الفول وطبق البيض، فهذا ما أجيده، فضحكا معًا قائلين: تمام هات ما عندك.. هل كنّا متصورين أن لديك أكثر من ذلك؟

لقد كان يوسف سلامة يمتلك من خفة الروح ورجاحة العقل وعمق البصيرة وسعة الصدر ما جعل شقته في

(1) أستاذ الفلسفة بكلية الآداب، جامعة القاهرة، ورئيس الجمعية الفلسفية المصرية.

المهندسين قبلة لكل الأساتذة والباحثين العرب، يلجأ إليه الجميع، وتهفو قلوبهم قبل عقولهم إلى اللقاء والتحاور معه، وكم كنت أقول له: شقتك هذه، وأريحيتك تلك هزمت الجامعة العربية، فقد كان شديد الكرم، وكثير الاحتفاء بكل الضيوف من عرب وأجانب، وكان يعشق القاهرة عشقًا فريدًا، وخصوصًا القاهرة التاريخية، ومناطق الحسين والسيدة زينب والأزهر... إلخ لدرجة أنه كان يحفظ شوارعها وحاراتها وأزقتها حفظًا كان يذهل كل من عرفه، حتى إنه وهو كفيف البصر كان دليلي في مشاويرنا كلها في القاهرة، وحينما كنت أصطحبه بسيارتي الى أي مكان، كان هو الذي يرشدني إلى الطريق قائلًا مثلًا: خذ اليمين القادم ثم در للخلف من الشارع المقبل ثم بعد ثلاث عمارات قف سنكون أمام المنزل تقريبًا.

لقد عرف يومًا أنني سأصحب الطلاب في أسرتي الجامعية (أسرة حورس) في رحلة الى الأقصر وأسوان، ووجدته يذهب إلى الطالب المسؤول عن الرحلة، ويدفع له اشتراك الرحلة، لنزور معًا تلك المنطقة التي كان يعلم مدى عشقي لها لحبي للفكر والحضارة المصرية القديمة. وكم واجهنا في هذه الرحلة من أهوال؛ حيث تشاجر الطلاب بعضهم مع بعض في أحد شوارع أسوان، وسطوا على أحد محلات الجزارة، وأخذوا السكاكين، فقضينا بقية اليوم والليلة في قسم الشرطة لفض الاشتباك، والحيلولة دون أن تحتجز الشرطة الطلاب، ولما ذهبنا إلى الفندق بعد أن فككنا أسر الطلاب، وجدنا إحدى الطالبات تشكو أنها قد سرقت، فقلت لها: يا ابنتي: لا يمكن أن يكون قد فعلها -كما تدعين- أحد العاملين بالفندق، فأهل أسوان معروفون بالأمانة والصدق! فأدرك يوسف بحدسه الجميل أن إحدى زميلاتها هي الفاعلة، ولكي لا تتصاعد المشكلة، قرر يوسف أن يدفع لها ما فقدته، وانتهت المشكلة. وظللنا طوال طريق العودة في حالة من الضحك والتندر بما حدث لنا درجة أننا كنا نظل جالسين طوال الليل في طرقة الفندق بين حجرات الطلاب والطالبات حتى لا يحدث تحرش أو مشكلة بينهم، لقد ذهبنا للاستمتاع والراحة، فإذا بنا لا نجدهما.

وهكذا أيضًا فكم حلمنا بأن نلتقي في مصر أو أوروبا أو تركيا من خلال زيارة مركز الدراسات الذي يعمل فيه، ومجلة قلمون التي كان يرأس تحريرها، أو بمشاركته في المؤتمر السنوي للجمعية الفلسفية المصرية، لكن لم تسمح لنا تعقيدات الحصول على التأشيرات لعنة الله على من اخترعها، وجعلها حائلًا بين أن يزور البشر بعضهم بعضًا.

لكم عانيت يا يوسف طوال حياتك الخاصة والعامة، ومع ذلك لم تفقد يومًا ابتسامتك ولا شغفك بالحياة، ولا حماسك للدفاع عن أفكارك وقضية شعبك في فلسطين وسورية، فنم قرير العين.